

مقصوده أن تكون حركات الإنسان وسكناته وعبادته الظاهرة والباطنة لله وحده

الإخلاص.. حقيقة الدين ومفتاح دعوة المرسلين وشرط قبول الأعمال الصالحة

■ ابن تيمية أكد أن

العمل القليل يفعلهُ

الإنسان على وجه يكمل

فيه إخلاصه يغفر الله

به كبائر الذنوب

قال الله تعالى: «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك بين القيمة» وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه، قيل: وما إتقانه يا رسول الله؟ قال: يخلصه من الرياء والبدعة».

إنَّ الله تبارك وتعالى جعل الإخلاص شرطاً لقبول الأعمال الصالحة. والإخلاص هو العمل بالطاعة لله وحده. والخلص هو الذي يقوم بأعمال الطاعة من صلاة وصيام وحج وزكاة وصدقة وقراءة للقرآن وغيرها ابتغاء الثواب من الله وليس لأن يمدحه الناس ويذكروه. فالخلص يجب أن تكون نيته خالصة لله تعالى وحده فقط فلا يصلي ليقول عنه الناس «فلان فصل لا يقطع الفرائض»، والصائم يجب أن يكون صيامه لله تعالى وحده فقط وذلك الأمر بالنسبة للمركزي والمتصدق وقارئ القرآن ولكل من أراد أن يجعل عمل به وإحسان.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل سآله بقوله: «يا رسول الله الرجل يبتغي الأجر والذكر ما له؟» قال: لا شيء له، فسأله الرجل مرة ثانية: الرجل يبتغي الأجر والذكر ما له؟ قال: لا شيء له، حتى قال ذلك ثلاث مرات ثم قال: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له وأبتغي به وجهه». رواد الحكماء أي أنَّ من نوى يعمل الطاعة لأجر من الله والذكر من الناس فليس له من الثواب شيء.

قال تعالى: «فمن الذين يتفقون أموالهم في سبيل الله فيكفل حبة لتعلم كل ذي خبرة كيف يستطيع أن يجمع ذلك في سبيل الله على اختلاف التخصصات، وأنواع المعرفة، سواء كان علمه نظرياً أو تجريبياً، أو كان ذا مهنة مهمة في حياة الناس».

وسوف نرى الصديق كان علماً بالأنساب وله فيها إبداع الطويل، قال السيوطي -رحمه الله- رأيت بخط الحافظ الذهبي -رحمه الله- من كان فرد زمانه في فنه، أبوبكر في النسب. ولذلك استخدم الصديق هذا العلم الفياض وسيلة من وسائل الدعوة؛ ليعلم كل ذي خبرة كيف يستطيع أن يستخر ذلك في سبيل الله على اختلاف التخصصات، وأنواع المعرفة، سواء كان علمه نظرياً أو تجريبياً، أو كان ذا مهنة مهمة في حياة الناس.

وسوف نرى الصديق يصحبه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عندما عرض نفسه على قبائل العرب ونداهم إلى الله، كيف وفق هذا العلم لدعوة الله، فقد كان الصديق خطيباً فوهماً له القدرة على توصيل المعاني بأحسن الأساليب، وكان يخطب عن النبي في حضوره، وغيبته، فكان النبي إذا خرج في الموسم يدعو (أي أبو بكر) الناس إلى متابعة كلامه تمهيداً ونوطنة لما يبيع الرسول، معونة له، لا تتدماً بين يدي الله ورسوله، وكان علمه في النسب ومعرفة أصول القبائل مساعداً له على التعامل معها، فعن علي بن أبي طالب قال: ما أمر الله -عز وجل- نبياً أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وإنما معه إلى أن قال: ثم دعفنا إلى مجلس آخر عليه السكينة والوقار، فقدم أبوبكر فسلم، فقال: من القوم؟ قالوا: من بني شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو

وهو مضاعفة الأجر عام للمصلي والصائم والمركزي والمتصدق وقارئ القرآن والأسر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرهم بشرط أساس العمل.

أما الرياء فهو العمل بالطاعة طلباً لمحمدة الناس فمن عمل غفل طاعة وكانت نيته أن يمدحه الناس وأن يذكروه بأفعاله فليس له ثواب على عمله هذا بل وعليه معصية كبيرة ألا وهي معصية الرياء.

وقد سئى الرسول عليه الصلاة والسلام الرياء الشرك الأصغر، شبهه بالشرك الأكبر لعظمه. فالرياء ليس شركاً يخرج فاعله من الإسلام بل هو ذنب من أكبر الكبائر.

إن الإخلاص هو حقيقة الدين ومفتاح دعوة المرسلين قال تعالى: ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله -قال الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه فغيري، تركته وشركه»، رواد مسلم.

وقال: «من تعلم علماً بما يفتني به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة (يعني ربحها) يوم القيامة»، رواد أبو داود، والذخر في الأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً.

قد يقول قائلكم ما الإخلاص الذي باتى في الكتاب والسنة واستعمال السلف الصالح رحمهم الله؟

والرد على ذلك بالقول أن تعاريف العلماء للإخلاص

تنوعت، ولكنها تصب في معنى واحد ألا وهو أن يكون قصد الإنسان في حركاته وسكناته وعبادته الظاهرة والباطنة، أن تكون خالصة لوجه الله تعالى، لا يريد بها شيئاً من حطام الدنيا أو ثناء الناس.

قال الفضل بن زياد سالت أبا عبدالله يعني الإمام أحمد بن حنبل عن النية في العمل، قلت كيف النية؛ قال يعالج نفسه، إذا أراد عملاً لا يريد به الناس.

قال أحد العلماء: نظر الأكياس في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا، أن تكون حركته وسكوته في سره وعلايته لله تعالى لا بمازجه نفس ولا هوًى ولا دنيا.

إن شأن الإخلاص مع العبادات بل مع جميع الأعمال حتى المباحة لعجيب جداً، فبالإخلاص يعطي الله على القليل الكثير، وبالرياء وترك الإخلاص لا يعطي الله على الكثير شيئاً، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه

وعبوديته لله، فيغفر الله به كبائر الذنوب كما في حديث البطائفة، وحديث البطائفة كما أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله: «صاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فبشر له تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مئ البصر، ثم يقال: أنكر من هذا شيئاً؟ انظرك كتبتي

الفاظطون؟ فيقول: لا يا رب، فيقال: أفلك عذر أو حسنة فيها؟ فيقول الرجل: لا، فيقال: بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة فتأشئت السجلات وتلفت البطاقة»، صححه الذهبي.

قال ابن القيم -رحمه الله-: فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العبدن واحدة، وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض. قال: وتامل حديث البطائفة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مئ البصر، تنقل البطاقة وتخلص السجلات، فلا يعذب، ومعلوم أن كل موحد له هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار يذنبوه، أهر رحمه الله.

ومن هذا أيضاً أيها الأخوة حديث الرجل الذي سقى الكلب، وفي رواية: بقي من بغايا بني إسرائيل، فعن أبي هريرة أن رسول الله قال: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرجه فإذا كلب يلهث ياكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي قد بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماءً ثم أمسكه بفيه

حتى رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له»، قالوا: يا رسول الله إن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: في كل كبد رطبة أجر» متفق عليه.

وفي رواية البخاري: «شكر الله له فغفر له فأبخله الجنة».

ومن هذا أيضاً ما رواه مسلم عن عبدالله بن عمرو أيضاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم -قال: «لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين»، وفي رواية:

«مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال: والله لأنحن هذا عن المسلمين لا يؤذيهم فأبخل الجنة».

قال شيخ الإسلام رحمه الله معلقاً على حديث البيهقي التي سقت الكلب وحديث الرجل الذي

أماط الأذى عن الطريق قال رحمه الله: فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وفي المقابل تجد أن أداء الطاعة

بدون إخلاص وصديق مع الله، لا قيمة لها ولا ثواب فيها، بل صاحبها معرض للعقوب الشديد، وإن كانت هذه الطاعة من الأعمال

العظام كالإنفاق في وجود الخير، وقفال التفكر، وقيل: العلم الشرعي.

كما جاء في حديث أبي هريرة

قال: سمعت رسول الله يقول: «إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه رجل استشهد قاتى به، فمأ

عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت ولكنك قاتلت ليقال: جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن قاتني به يعرّفه نعمة فعرّفها، قال فما عملت؟ قال تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك

القرآن قال: كذبت ولكن تعلمت ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من صدوق المال قاتني به عرفه نعمة فعرّفها، قال: فما عملت فيها إلا أنفقت فيها قال: ما تركت من سبيل تحب أن يتفق فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار»، رواد مسلم.

أيها الأخوة في الله: ولذلك فقد كان سلفنا الصالح رحمهم الله أشد الناس خوفاً على أعمالهم من أن يخالفه الرباء أو تشوبها

شائنة الشرك، فكانوا رحمهم الله يجاهدون أنفسهم في أعمالهم وأقوالهم، كي تكون خالصة لوجه

الله سبحانه وتعالى.

ولذلك لما حدث يزيد بن هارون

بحديث عمر: «إنما الأعمال بالنيات» والإمام أحمد جالس، فقال الإمام أحمد ليزيد: يا أبا خالد

هذا الخناق، وكان سفيان الثوري يقول: ما عالجت شيئاً أشد

عليّ من نيتي لأنها تتقلب عليّ.

وقال يوسف بن أسباط، تخلص النية من فسادها أشد على العامل من طول الاجتهاد.

وقال بعض السلف: من سره أن يكفل له عمله، فليحسن نيته، فإن الله عز وجل يأجر العبد إذا أحسن نيته حتى بالقلمة.

قال سبل بن عبد الله التستري: ليس على النفس شيء أشق من الإخلاص، لأنه ليس لها فيه نصيب.

وقال ابن عبيدة: كان من دعاء مطرف بن عبدالله: اللهم إني استغفرك مما زعمت أنني أردت به وجهك فخالط قلبي منه ما قد علمت.

وهذا خالد بن معدان كان رحمه الله: إذا غلظت حلقته من الطلاب قام خوف الشهرة، وهذا محمد بن الحنفري يقول: كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت.

وهذا أيوب السختياني كان يقول الليل كله فإذا جاء الصباح (أي الفجر) رفع صوته كأنه قام الآن.

وكان رحمه الله إذا حدث بحدث النبي يشتد عليه البكاء (هو في حلقته) فكان يشد العمامة على عينه ويقول: ما أشد الزكّام ما أشد الزكّام.

وهذا عبد الواحد بن زيد يخبرنا بحدث عجيب حصل لأبيوب، وقد عاهد الإ يميناً أن لا يموت أيوب

إذ لا رياء حينئذ، قال عبد الواحد كنت مع أيوب ففعلشنا عفشاً شديداً حتى كانوا يهلكون، فقال أيوب: تسرف عليّ؟ فقلت: نعم إلا أن تموت.

قال عبدالواحد فقمز أيوب

■ ابن القيم نبه إلى

أن الأعمال لا تتفاضل

بصورها وعددها

وإنما بتفاضل ما في

القلوب

برجله على حزاء فنبع الماء فشربت حتى رويت وحملت معي، وقال أيوحازم: لا يحسن عبد فيما بينه وبين ربه إلا أحسن الله ما بينه وبين العباد، ولا يمور ما بينه وبين الله إلا أعور الله ما بينه وبين العباد، ولصانعة وجه واحد أبسر من مصانعة الوجود كلها.

وهذا داود بن أبي هند يصوم أربعين سنة لا يعلم به أهله، كان له مكان يأخذ طعامه في الصباح فيتصدق به فإذا جاء الغداء أخذ غداء فتصدق به فإذا جاء العشاء تعشى مع أهله.

وكان رحمه الله يقوم الليل أكثر من عشرين سنة ولم تعلم به زوجته، سبجان الله أنظر كيف ربوا أنفسهم على الإخلاص وحفظوا على إخفاء الأعمال الصالحة، فهذا زوجته تضاعفه وينام معها ومع ذلك يقوم عشرين سنة أو أكثر ولم تعلم به، أي إخفاء للعمل كذا، وأي إخلاص كذا.

فأين بعض المسلمين اليوم الذي يحدث جميع أعماله، ولربما لو قام ليلة من الدهر لعم به إلا قارب والجيران والأصدقاء، أو لو تصدق بصدقة أو أمدى هدية، أو تبرع بمال أو غفر أو غير ذلك لتعلمت

الأساليب التي شرفها وغريها، إنني لأعجب من هؤلاء، أتم أكمل إيماناً وأقوى إخلاصاً من هؤلاء السلف بحيث أن السلف يخفون أعمالهم لضعف إيمانهم، وهؤلاء يتفخرونها لكمال الإيمان؟ عجيباً ثم عجيباً، فأني أوصيك أخي المسلم إذا أردت أن يجحد الله وأن تتأل رضاه فما عليك إلا بصدقات مخفية لا تعلم شاعك ما شغفك بميتك فضلاً أن يعلمه الناس، وما عليك إلا بركايات

إمامها الخشوع وقائدها الإخلاص تركها في تقفات الليل بحيث لا يراك إلا ربه النفس على مثل هذه

الأساليب لنو أبعد لها من الرياء واكمل لها في الإخلاص، وقد كان محمد بن سيرين رحمه الله يضحك في الثهاجر حتى تدمع عينه، فإذا جاء الليل قطعه بالبكاء والصلاة.

أبوبكر استخدم علمه بالأنساب في نشر الإسلام بين قبائل العرب في الأسواق

■ ملازمة الصديق للرسول جعلته يفهم الإسلام بشموله ليصبح أعلم

الصحابه بدين الله

■ الإسلام لن ينصره إلا من احاط به من جميع جوانبه أما الحماية

المشروطة فلا تحقق الهدف المقصود

شيخنا وصاحب حربنا، فقال المنثي (وأسلم بعد ذلك): قد سمعت مقالتك يا أبا خرايش، والجواب فيه جواب هاشمي بن قبيصة في تركنا ديننا ومتابعتنا دينك، وإنما نزلنا بين صيرين احدهما اليمانة والأخرى صيرين، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «وما هذا الصيران؟» فقال له: أما أحدهما فطلقوا البئر وأرض العرب، وأما الآخر فأرض فارس وإنهار كسرى، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ألا نحدث حدثاً، ولا نؤوي محدثاً، ولعل هذا الأمر الذي تدعوننا إليه مما تكرهه الملوك، فأما ما كان مما يلي بلاد العرب فذهب صاحبه مقفور وعذره مقبول، وأما ما كان يلي بلاد فارس فذهب صاحبه غير مقفور وعذره غير مقبول، فلان أردت أن ننصرك مما يلي العرب فقلنا، فقال رسول الله -صلى

الله عليه وسلم-: «ما استأم في الرد؛ إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله -عز وجل- لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرايتم إن لم يكنوا إلا قبلاً حتى يورثكم الله تعالى أرضهم وديارهم ويقرشكم نساءهم، اتسبحون الله وتقدسونه؟» فقال له النعمان بن شريك: اللهم فلك ذلك.

دروس وعبر

1 - ملازمة الصديق لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، جعلته يفهم الإسلام بشموله، وهما الله تعالى بأن يصبح أعلم الصحابة بدين الله؛ فقد تعلم من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حقيقة الإسلام، وتربى على يديه في معرفة معانيه، فاستوعب طبيعة الدعوة ومر بمراحلها المتعددة، واستفاد من

وتابعاه، وبذلك فشلت المباحثات.

2 - «إن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه»، كان هذا الرد من النبي -صلى الله عليه وسلم - على المنثي بن حارثة؛ حيث عرض على النبي حمايته على مياه العرب دون مياه الفرس، فمن يسير أغوار السياسة البعيدة يرى بعد النظر الإسلامي النبوي الذي لا يسأمي.

4 - كان موقف بني شيبان يتسم بالارحية والخلق والرجولة، ويتم عن تعظيم هذا النبي، وعن وضوح

في العرض، وتحديد مدى قدرة الحماية التي يمكنها أن توفر الله أمر الدعوة مما تكره الملوك، وقدر الله

أشيبان بعد عشر سنوات أو تزيد أن تحمل هي ابتداء عبء مواجهة الملوك بعد أن اشرق قلبها بنور الإسلام، وكان

للنبي بن حارثة الشيباني صاحب حربهم ويظهر المغوار الذي كان من ضمن قادة الفتوح في خلافة الصديق، فكان وقومه بن أجرة المسلمين بعد

إسلامهم على قتال الفرس، بينما كانوا في جاعليتهم يرضون الفرس

الدنيا؛ حيث جعلهم سادة الأرض مع ما ينتفرون في أخراهم من التعيم الدائم في جثات التعيم.